تسلية نفسي وإخواني لرحيل العالم الربّاني الشّيخ سيدي الحاج عبد القادر عثماني تغمّده بالرّحمة ومجاورة النّبيّ العدناني صلّى الله عليه وآله وسلَّم بلا تواني

2023-01-27

الحمد لله الذي قرن العلماء بنفسه في الشهادة على وحدانيّته. فقال سبحانه في سورة آل عمران:((شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)). وجعلهم أهل خشيته. فقال في سورة فاطر:((إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)). ورفع درجتهم بفضله ورحمته. فقال سبحانه في سورة المجادلة:((يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ)). وَأَشْهَدُ أَنْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، أقام في كل عصر مَن يُقتدى بهم في سلوك سبيل الرشاد. وأدام لهم في الآخِرين ذِكْرا جميلا مدى الآماد. فجعلهم قادة لمَن بَعدهم في صنوف الخير من الصفاء والوفاء وانتهاج مسلك السداد. يَدعُون مَنْ ضلَّ من الناس إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يَحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنُور الله أهل العمى، فكم قتيلٍ لإبليس قد أحيَوْه، وكم ضالٍّ تائهٍ قد هدَوْه، يَنفُون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المُبطِلين، وتأويل الجاهلين. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه وخليله. وخيرته من خلقه وحبيبه. دعانا إلى الجنّة، وأرشدنا إلى اتّباع السنّة، وأخبر أنّ أعلانا منزلة أعظمنا صبراً، مَن استرجع واحتسب مصيبتَه كانت له ذُخراً. ومنزلة عالية وقدراً، وكان مقتفياً هدْياً ومتّبعاً أثراً، القائل صلى الله عليه وسلم:((إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصَابَهُ بِي، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ)).

يا أمّة المصطفى يا أشرف الأُممِ * هذا نبيّكُمُ المخصوصُ بالكرم
هو الرؤوف الرحيم الطاهرُ الشّيَمِ * إن شِئتُمُ أن تنالوا رِفْعةً وغِنًى
صلّوا عليه لعلّ اللهَ يرحمُنا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمّد. دُرّة الأكوان. وهديّة الرحمان. وعلى آله البدور الحسان. وصحابته الليوث الشجعان. صلاة تختم لنا بها بخاتمة السعادة والإيمان. وتكسونا بها ملابس الرضى والرضوان. وتسكننا بها مع مَنْ أنعمتَ عليهم أعالي الفراديس وفسيح الجنان. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ لله سبحانه وتعالى الحِكمة البالغة، والقدرة النافذة في كَوْنه وخَلْقه، وإنّ ممّا كتبه الله جلَّ وعلا على خَلْقه الموت والفناء، يقول سبحانه في سورة الرحمن:((كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)). ويقول عزّ وجلّ في سورة الأنبياء:((وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ))، ويقول تعالى في سورة العنكبوت:((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)). ويقول جلَّ وعلا في سورة الزمر:((إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)). وإنّ أعظمَ أنواع الفَقد على النفوس وَقْعاً، وأشدَّه على الأمّة لَوْعة وأثراً، فَقْد العلماء الربّانيّين، والأئمّة المصلحين. والمشايخ العارفين. لأنّ للعلماء مكانة عُظمى، ومنزلة كُبرى، فَهُم ورثة الأنبياء، وخلفاء الرسل، والأمناء على ميراث النبوّة، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم فيما رَوَاه أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه مَرْفُوعًا:((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ. وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا. إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)). أيّها المسلمون. فالعلماء للناس شموسٌ ساطعة، وكواكب لامعة، وللأمّة مصابيح دجاها، وأنوار هداها، بهم حُفظ الدين وبه حُفظوا، وبهم رُفعت منارات الملّة وبها رُفِعُوا. نعم؛ لا يضر العالم أبدا إهمال الناس له، أو تغافلهم عنه، أو جهلهم لقدره ومكانته؛ لأنّ

الله رفع قدره ومكانته، قال تعالى في سورة المجادلة:((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)). فهم يَحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون به أهل العمى، ويَهدون به مَن ضلّ إلى الهدى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوْه، وكم من ضالٍّ تائه قد هدَوْه، فهم أهل خشية الله. قال تعالى في سورة فاطر:((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ))، ومهما صِيغت النعوت والمدائح في فضائلهم فلن توفّيهم حقهم.

لَهُمُ الْمَهَابَةُ وَالْجَلالَةُ وَالنُّهَى * وَفَضَائِلُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ

وَمِدَادُ مَا تَجْرِي بِهِ أَقْلامُهُمْ * أَزْكَى وَأَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ

يَا طَالِبِي عِلْمَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ * مَا أَنْتُمُ وَسِوَاكُمُ بِسَوَاءِ

أيّها المسلمون. إنّ لهذه الدنيا نهاية، وإنّ لنهايتها علامات، ومن علاماتها موت العلماء، ففي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:((إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ. وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ)). فموت العلماء، هو رفعٌ فِعلي للعلم عن وجه الأرض، رفعٌ عَملي للعلم الشرعي الذي يقرّب المسلم من ربه، والذي ينظِّم حياة الإنسان في هذه الدنيا، والذي يحفظ للمسلم صحّته وعقله وعِرضه وماله ودينه. فحين يسُود الجهل، تتحكَّم الأنانية في القلوب، فتكثر الحروب، وتُدمِّر البلدان والشعوب، فتتحوَّل حقوق الإنسان إلى عقوق الإنسان، وبسيادة الجهل يفشو الزنا، فتغزو الأمراض الخطيرة أجسام الفاسقين والفاسقات، وتُشرب الخمور، فتغِيب العقول، فبموت العلماء يذهب العلم الشرعي الذي يُحرِّم الزنا، ويُحرِّم الخمور، ويُحرِّم الرِّشْوة وأَكْل أموال الناس بالباطل، ويُحرّم الظُّلْم بكل أنواعه وأشكاله. فبذهاب العلماء تذهب مكارم الأخلاق، وتسُود مفاسد الفسوق، وإذا كان

الأمر كذلك، فبوادر نهاية الدنيا باللهِ الذي لا إله إلا هو قد ظهرت، ولقد أحسن مَن قال:

الأرضُ تَحيى إذا ما عاش عالمُها * متى يمت عالمٌ منها يمت طَرَفُ

كالأرض تحيى إذا ما الغيْثُ حَلّ بها * وإن أبى عاد في أكنافها التّلَفُ

وقال آخَر:

إذا شئتَ أن تَرثي فقيدًا من الورى * وتنـدبَه بَعـد النبيِّ الـمكرَّمِ

فلا تبكين إلا على فَقْدِ عالمٍ * يُبـادر بالتـفهيم للـمتعلِّمِ

لأنّ حِفظ الدين أعظمُ مقاصد هذه الشريعة الغرّاء، وإنّ من أعظم أسباب حِفظ الدين حِفظه بالرجال المخلِصين، والعلماء العاملين، فوُجودهم في الأمّة حِفظ لدينها، وصَوْن لعزّتها وكرامتها، وذَوْد عن حياضها، فإنّهم الحِصن الحصين، والسياج المتين، الذي يحُول بين هذا الدين وأعدائه المتربِّصين. فموت العلماء؛ من المصائب العظام، والنوازل الجسام. إذ أنّ فَقْد العالم ليس فقداً لشخصه ولا لصورته، وليس فقداً للحمه ودمه، ولكنه َفقْدٌ لجزء من ميراث النبوّة، وهو العلم، وذلك مؤذِنٌ بقُرب الساعة. وفُشُوّ الضلالة، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)). وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:((لا يَزَالُ عَالِمٌ يَمُوتُ، وَأَثَرٌ لِلْحَقِّ يَدْرُسُ، حَتَّى يَكْثُرَ أَهْلُ الْجَهْلِ. وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ، فَيَعْمَلُونِ بِالْجَهْلِ، وَيَدِينُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَيَضِلُّونَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)). أيّها المسلمون. إنّ المراد بالعلم هنا، هو عِلم الشرع والدين، لأنه قد يُّضيّع الناس عِلم الدين وإنْ وصلوا في عِلم الدنيا إلى غَزْوِ الفضاء، والصعود

إلى القمر والكواكب، فقد يفعلون ذلك وهم بالله جاهلون، وعنه غافلون، فقد يكون الإنسان جاهلا بدينه، وهو يَحمل أعلى الشهادات، وقد يَحمل الشخص درجة الدكتورة بامتياز، وهو جاهل بأبسط أمور دينه، لا يعرف حتى كيف يتوضّأ، وفي هؤلاء يقول الله تعالى في سورة الروم:((وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)). أيّها المسلمون. إنّ موت العلماء، يَفرض علينا أن نهتمّ بطلب العلم. حتى نملأ هذا الفراغ الذي خلّفوه، يَفرض علينا أن نشمّر عن ساعد الجدّ. حتى يَتكوَّن فينا مَن يؤدّي دَوْرهم، يقول الصحابي الجليل أَبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه:((مَالِي أَرَى عُلَمَاءَكُمْ يَذْهَبُونَ، وَأَرَى جُهَّالَكُمْ لا يَتَعَلَّمُونَ؟ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، فَإِنَّ رَفْعَ الْعِلْمِ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ))، ويقول أيضا رضي الله عنه:((كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا، أَوْ مُحِبًّا أَوْ مُتَّبِعًا، وَلَا تَكُنِ الْخَامِسَ فَتَهْلِكَ)). وطلب العلم يجب أن يكون من مدارسه وزواياه الشرعية. وعن مشائخه العارفين المتّصليّ السند بصاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلَّم. أيّها المسلمون. إذا ما مات ذو عِلم وتقوى فقد ثَلُمَت من الإسلام ثُلْمة. يقال ذلك أيّها الأحبّة في هذا الوقت الذي رُزئت فيه أمّتُنا الإسلامية عامّة. وجزائرنا خاصّة. بفَقْد عالم من علمائها. ووفاةِ إمام من أئمّتها، وحَبْر من أحبارها، وجَهْبذ من جهابِذتها، ألا وهو الشيخ الفاضل. والمربّي الصالح. ذو الشَّيْبة في الإسلام. والخدمة للقرآن. الذاكر لله كثيرا. والمصلّي على حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا. العالم الجليل. والأديب الأريب. التّقيّ الورِع. شيخنا العلاّمة: سيدي الحاج عبد القادر عثماني. شيخ الزاوية العثمانية بطولقة. رحمه الله. وجعل الجنّة مستقرّه ومثواه. اللهم آمين. الذي كان طَوْدًا شامخًا راسخًا في العلم والتقوى، وعَلَمًا بارزًا من أعلام السنّة والفقه والفتوى. فضائله لا تُجارى. ومناقبه لا تُبارى، ثلمته لا تُسدَّ. والمصيبة لفَقْده لا تحدّ. والفجيعة لموته نازلة لا تُنسى. وفاجعة لا تُمحى. والخطب بفَقْده جلل. والخسارة فادحة، ومهما كانت الألفاظ مكلومة. والجُمَل مهمومة. والأحرف وَلْهَى. والعبارات ثَكلى.

فلن تستطيع جَوْدة التعبير. ولا دِقّة التصوير، فليست الرزية على الأمّة بفَقْد جاه أو مال. كلاّ ثم كلاّ، ولكن الرزية أن يُفْقَد عالم. يموت حين موته جمٌّ غفير. وبشرٌ كثير.

لَعَمْرُكَ مَا الرَّزِيَّةُ فَقْدَ مَالٍ * وَلاَ شَاةٌ تَمُوتُ وَلا بَعِيرُ
وَلَكِنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ شَهْمٍ * يَمُوتُ لِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرُ

وتَعْظُم الفجيعة إذا كان مَن يُفْقَد عالمًا متميِّز المنهج والسلوك، متوازن النظرة. متماسك الشخصية. معتدل الرُّؤى. أمّة وحده. ونسيج بمفرده. وطراز مستقلّ، بقيّة السلف الصالح، وأستاذ أجيال، تخرّج على يده الكثير الكثير الطيّب، كان شيخنا سيدي الحاج عبد القادر عثماني. رحمه الله. آية في العلم والدعوة والفُتيا، والبذل والشفاعة، والخير والكرم، وقضاء حوائج الناس، والزهد والتواضع، من دعاة العقيدة الأشعرية الصحيحة. والسنّة المتينة، الناصعة بالدليل والأثر. والملتزَم فيه بالإعتدال والوسطية. والحرص على الجماعة. والنصح لله ورسوله ولكتابه ولأئمّة المسلمين وعامّتهم، عُرف رحمه الله تعالى بورعه وزهده وتواضعه. وتبحّره في العلم والفقه. تميّز رحمه الله بذاكرة عجيبة. والتزامٍ تامّ بالمعتمد في المذهب المالكي. وحب الصالحين والتعلّق بهم. أيها المسلمون. ماذا عساي أن أقول. يا سيّدي إلى جنّات الخلد ننعيك، مَن للمحاريب بَعدك سيّدي وأنت فارسها، مَن للمنابر بَعدك وأنت خطيبها المفوَّه، مَن للفتاوَى وتأصيلها وأنت ضابطها ومحقّقها، مَن يحدّثنا عن المحبّة وصِدقها وأنت رائدها، مَن يُزيِّن مجالسنا بحديثه الشَّهْد عن أولياء الله الصالحين وجهادهم ومجاهدتهم، مَن ينثر دُرَر الفوائد في مجالسنا وكنتَ رحمة الله عليك تُضَوِّعها مِسْكًا محمّديًّا، لقد بكتْ منّا المُقَل حتى جَفّ دمعها، ولو أنّ الأجل استأذننا لقلنا له خذ من أعمارنا لعمر شيخنا، فبموته يموت خَلْق كثير، ستبقى حيّا في قلوبنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد، إلى رحمة الله تلك الروح الطاهرة الكريمة الزكية، التي ما حملت شرا لمحسن ولا لمسيء،

وذلك القلب التقي النقي، الذي كان يسع الدنيا بخضرائها وغبرائها، وما أضمر في حياته غير الخير والإحسان، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان. أيّها المسلمون. وبهذا المصاب الجلل تكون الجزائر خاصة والأمّة الإسلامية عامّة قد فقدت أحد أكبر ركائزها وقاماتها وعلمائها وعبّادها. رحمة الله عليك أيّها الشيخ الجليل. رحمة الله عليك أيّها المربّي الكريم. رحمة الله عليك أيّها الناصح الأمين. رحمة الله عليك في الأوّلين والآخرين. رحمة الله عليك في الملإِ الأعلى إلى يوم الدين. ورفع الله درجة شيخنا في المهديّين، وأخلفه في عَقِبِه وتلاميذه في الغابرين، وجمعنا به ومشائخنا في جنّات النعيم، كما جمعنا في هذه الدنيا على المحبّة فيه، ورَحِمِ العلم الواصل بيننا. إنه جواد كريم. كما نسأله سبحانه أن يلهمنا رشدنا. وأن يغفر لمَن مات من علمائنا ومشائخنا، ويرفع درجاتهم في المهديّين، ويوفِّق الأحياء لبيان الحق والدعوة إليه. وأن يرزقهم التسديد والتأييد. ويكتب لهم الإخلاص والقَبول ودوام النفع، وأن يَخلف على الأمّة الإسلامية خيراً. ويحفظها من شرور الغير وهولِ الفواجع، لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيءٍ عنده بأجل مسمّى. والحمد لله على قضائه وقدره. وهو وحده المستعان. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ((وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)). رحم الله شيخنا العلاّمة سيدي الحاج عبد القادر عثماني. رحمة الأبرار، وأسكنه أعالي الجنان، مع النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولائك رفيقا، اللهم آمين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين. اهـ